

سيدة الكتابة

«١»

الطيبون والأشرار خرجوا كلهم وراء نعش يوسف بك وهبي يودُّعونه إلى مثواه الأخير. بين صفوف المشيعين تساند محمود المليجي على توفيق الدقن يهمس له: «الظاهر خلاص، الدفعة مطلوبة وباين الحكاية بالدور يا تيفة»، ويرد الدقن مجفِّفًا دموعه: «كله على ودنه يا ابوحنفي!»

ذلك المشهد رسمته على الورق سناء البيسي في أحب كتبها إلى قلبي «سيرة الحبايب». وروعة سناء أن رسمها يصف بدقّة، ويحلل برقّة، ويكشف الخفايا والخبايا، فهي ترسم بالكلمات تمامًا مثل زوجها الفنان منير كنعان الذي كان يبدع في رسم اللوحات، كلاهما يرسم، هي ترسم بالكلمات، وهو يرسم بالفرشاة.

ما حدث بين منير وسناء يشبه حكايات ألف ليلة؛ فقد رآها للمرة الأولى حين كانت طالبة في كلية الآداب قسم صحافة، ولم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة من عمرها، لكنه التقط في عينيها نورًا، ووهجًا، ورأى بداخلها جمالًا أراد أن يسجله في واحدة من لوحاته التي تتصدر غلاف مجلة «آخر ساعة»، ووافقت طائعة، وسارت معه منساقة مبهورة منومة -على حد تعبيرها- وجلست أمامه موديلًا يحتضن زهر المشمش، وأدمنت الجلوس أمامه ليرسمها، وكانت تمضي ساعات وهي تجلس في

وضع متحجر، تعاني جاهدة أن لا يهتز لها طرف أو ترتعش عيناها أو تسند فقرات عمودها الفقري المتيبس لطول جلوسها على مقعد خشبي، لكن يهون التعب كله في لحظات للحوار والوثام والتهافت والتراحم والحب والارتباط ورسائله الخاصة التي يدندن لها بها عندما يستغرقه الرسم: «ياللي نويت تشغلني طاوعني وابعد عني.. إن حبيتك يبقى يا ويلك من حبي.. وراح أشغل فكري وبالي عليك وأحبك وأفضل أعيش في هواك لحد ما يبجي يوم وألاقيك آمنت بحبي وجيت برضاك». وذهبتُ إليه راضية مطمئنة، وتزوجا، وعاشا معًا ليغدو تأثيره وآثاره حاضرة دومًا في ما تقوم به، وما تنطق به، وما تنظر إليه، وما تنتقده، وما تفتقده، وما تسعى إليه، وما تتجنبه، وما تحبه، لذا تقول عنه في حوارها المهمّ مع الصحفية أمل سرور: «ألّم يرسم على وجهي الابتسامة والغضبة وحُمرة الخجل وتهويمة الشجن.. ألّم يُدقني عصارة الكرز ورحيق الياقوت ويسافر بي في حمرة الفجر والشفق وخدود الورد.. ألّم يمنحني هبة عمري، ابني هشام».

«٢»

لم يصنع فارق الثمانية عشر عامًا حاجزا بين منير وسناء، فمنير وُلد في فبراير عام ١٩١٩، أما سناء فقد وُلدت يوم الجمعة الأول من يناير عام ١٩٣٧. حينذاك أعلن أحمد حسين عن حزب «مصر الفتاة»، وتم الانتهاء من تصوير فيلم «سلامة في خير» لنجيب الريحاني، وعُرض فيلم «نشيد الأمل» بطولة أم كلثوم، وفيلم «ليلى بنت

الصحراء» لكن تم إيقاف عرضه لاعتراض الخارجية الإيرانية باعتبارها يسيء إلى أحد الرموز الإيرانية.

وقام رئيس الديوان الملكي ببثّ شائعة أن «الوفد» حزب يسيطر عليه الأقباط بقيادة مكرم عبيد، فأقيلت وزارة «الوفد»! في هذا التوقيت وُلدت سيد الكتابة سناء البيسي، وكان والدها يشغل منصب مدير مصلحة الآثار العربية، وكان أقرب الأصدقاء إليه حسن عبد الوهاب عالم الآثار الإسلامية الذي قام بتحديث قبة الصخرة في القدس، أما والدتها فكانت ترأس لجان الأوقاف الأهلية التي تنادي بحل الوقف على أساس الشرع، واستقبلها الرئيس عبد الناصر في بيته بمنشية البكري ليُنصت إلى وجهة نظرها.

حار والدها في تسميتها، فسماها صديقه عالم الآثار الإسلامية الذي قام بتحديث قبة الصخرة في القدس «سناء» لتحمل المجد والرّفعة لأبيها ولعائلتها ولمصر بأسرها، وظلت الفتاة الصغيرة نهمة بحب المعرفة، فكانت لا تنام إلا وقد احتضنت كتابًا ينام على صدرها، فقد ورثت من أمها نهم القراءة.

وكانت أمنية والدها أن يراها يومًا مثل الدكتورة عائشة عبد الرحمن، بعدما لمس عشقها للورقة والقلم، لكن لم يكن هناك قسم لدراسة الصحافة في كلية الآداب، فرأى والدها أن تغدو محامية لتستعين بمكتبته القانونية العامرة، وبالفعل قدمت أوراق نجاحها في شهادة التوجيهية لكلية الحقوق جامعة عين شمس.

وقبل دخول الكلية بأيام سمعت صوت صديقتها صافي ناز كاظم ينطلق في مدخل البيت الذي كانت تسكنه في حي العباسية، تصرخ قائلة: «فتحوا قسمًا جديدًا للصحافة في جامعة

القاهرة»، فسارع والدها لينقل أوراقها من الحقوق إلى الآداب تحقيقًا لرغبة ابنته.

وذهبت سناء إلى قسم الصحافة بكلية الآداب جامعة القاهرة، والتقت الأستاذ مصطفى أمين، وكتبت عن لقاءه تقول: «حضر الأستاذ مصطفى أمين ليلقي علينا محاضرة لم أفهم معظمها، لأنه كان ينفث كلماته بين أنفاس سيجارته التي غرسها بين شفثيه فضاعت مع الدخان».

وقرأ العملاق مصطفى أمين ما كتبت، فقرر أن تعمل في «أخبار اليوم»، وتدرجت داخل هذه المؤسسة التي صنعت أساطير الصحافة، ثم انتقلت إلى «الأهرام» لتلتقي بنت الشاطئ، وتصير صديقة لها، وقريبة إلى قلبها، بل صارت الدكتورة عائشة تمدح كتاباتها، لتحقيق سناء حلم أبيها!

«٣»

تأثرتُ بها كثيرًا، وعجزتُ عن الكتابة عنها طويلا، وشعرتُ أنها لم تحصل على ما تستحق مقارنةً بعطائها غير المحدود للصحافة، وأشعر دائماً أنني مدين لها، وأنها أستاذتي حتى لو لم نلتق يوماً، ولم تنشأ بيننا أي علاقة.

وربما من أسباب أنني عجزتُ طويلا عن الكتابة عنها هو أن المبدع عمر طاهر كتب عنها فأوجز كل ما يُقال، وأغلق -كعادته- الباب خلفه على من يأتي بعده.

لكن الكتابة كلها لا تعطى سيدة الكتابة حقها، فقد صنعت من مجلات المرأة شيئاً تجب دراسته وتدرسه وتعميمه، وولدت فرعاً جديداً في الصحافة كان قبلها هامشاً وهامشياً،

ومعها صار مهمًّا ومركزيًّا، وبعدها خرج الجميع من عباءتها. فحين شرعت سناء البيسي في إصدار مجلة «نصف الدنيا» في فبراير ١٩٩٠ طلب منها ثلاثة من جابرة الكتابة أن تحجز لهم صفحات أسبوعية يكتبون فيها.

الأول هو الأستاذ أحمد بهاء الدين، أما الثاني فهو العم نجيب محفوظ الذي قرر أن يمنحها كل ما يوجد به قلمه ليكون حكرًا لها وحدها، فخرجت على صفحات «نصف الدنيا» أصداء سيرته الذاتية.

أما الثالث فهو العملاق يوسف إدريس الذي طلب منها أن تحجز له الصفحة الأخيرة ليكتب فيها مذكراته، وقال لها يومها: «سأكتب لأول مرة قصة حياتي الحقيقية من بداية مولدي طفلاً في قرية البيروم، سأكتب أخطر أعمال الأدبية التي فيها تعرية للنفس والتاريخ والأصل والنسب والأسباب والمسببات ودور الأم والأخت والجدّة وأصل المعرفة».

وبدأ إدريس يكتب فصلاً وآخر وآخر، ويواصل اعترافاته بجرأة لم يصدقها أحد، فقد كانت عبارات الأديب الجريء تتجول بحرية جامحة، وظل يكتب أحداث حياته وفجأة وجدت صوته يعتذر عن التكملة، وحاولت سناء أن تثنيه عن قرار الانقطاع عن الكتابة لكن دون جدوى، ولم يكتمل هذا العمل الأدبي الذي حمل عنوان «ملكة» الذي كان يعتبره إدريس الأهم في حياته. ما حققته سناء البيسي في مجلة «نصف الدنيا» كان بالدنيا كلها، فلا يمكن أن يدعى أحد أنه أتى بما لم تأت به سناء البيسي، فقد صنعت كل شيء، ما يخطر بالك، وما سيخطر في بال الأجيال القادمة.

فقد كان القارئ يبحث عن هذه المجلة المتخصصة في شؤون

المرأة رغم أنها كانت الأعلى سعرًا، لكنها كانت الأغنى فنًا في
السوق الصحفية، لذا كانت تنفد عن آخرها، وعلى الرغم من
أن سعر المجلة -بالهدية- كان خمسة عشر جنيهاً، لكنها كانت
رائدة «فن المرتجع صفر»!
وهو فنٌ لو تعلمون عظيم!

محاكم النقد!

من حق أصغر كومبارس أن يصغي إليه الناس ويحترموه، لكن
الجمهور المتوحش اعتقد أنه اشترى كل شيء بفلوسه!
سامى السلاموني

obeikandi.com

ناقد أحبَّ من ينتقدهم

«١»

كان يحب من ينتقدهم، وينتقد من يحبهم!
وكان يمسك بين يديه سيف الناقد الحق الذي لا يبغى جزاءً
ولا سُكورًا، لكنه أيضًا كان يحمل قلب مُحب بحق لكل من
يكتب عنهم، فلم يُضبط مرة واحدة متربصًا أو مترصدًا لأحد،
فلم يكن ينتقد لينتقم، وإنما ليجدد ويطوّر.
وكم من كُتّاب لم يكن يعرفهم أحد، وحين سلّط عليهم
ضوء محبته استطاعوا أن يشغلوا المكان اللائق -على حد
تعبير شقيقته فريدة. كان يدرك أن ما يكتبه يجب أن يصل
إلى القارئ مباشرة، فلم يتعمر أو يستعرض في كتاباته بل كان
واضحًا وجاذبًا، فلم يطغَ عمق فكرته على متعة سرده، ولم تطغَ
روح الناقد على بساطة التعبير.

هذا هو رجاء النقاش، الناقد الكبير والإنسان النبيل والمثقف
الذي كان يثق بنفسه فيمجّد مواهب الآخر -مثلما وصفته
سناء البيسي- فلم يجد أي غضاضة في أن يكتب كتابًا ثلاثية
صفحة من القطع الكبير عن شاعر شاب أصغر منه سنًا، وأقل
منه شهرة، وأن يصفه بشاعر الأرض المحتلة، ليكتشفه ويقدمه
للناس ليصير اسمه علامة في تاريخ الشعر، ويصبح الشاعر
الكبير محمود درويش. والمدهش أنه رغم كونه بالأساس ناقدًا
أدبيًا فإنه كتب كتابًا كاملا عن الإمام المراغى شيخ الأزهر، ربما

بسبب العبارة الأهم والأجمل والأروع التي قالها الشيخ الجليل «قدموا لي أي شيء ينفخ الناس وأنا آتيكم بسند له من الشريعة الإسلامية»، فقد وقعت هذه العبارة في قلب النقاش الذي وجد نفسه قد وقع أسيرا لصاحبها.

وربما لأنه تذكّر والده الشيخ عبد المؤمن، وجدّه الذي كان مقرّناً للقرآن لذا يقول: «إنني استفدت من القراءة المتأنية للقرآن الكثير من المعرفة باللغة العربية، لا من حيث الألفاظ فقط ولكن من حيث التذوق والتصوير الفني القادر على التأثير الكبير في النفس، وكنت شغوفاً بحفظ القرآن الكريم في السن المبكرة، وقد ساعدني والدي عبد المؤمن النقّاش على ذلك لأنني كنت أجد صعوبة في قراءة أي سورة وحدي، ولا أتصور أن هناك من يحب الثقافة ويريد أن يكسب لنفسه ذوقاً رفيعاً سليماً يمكّنه من أن يصل إلى شيء من ذلك دون أن يقرأ القرآن قراءة فهم واستيعاب من الناحية اللغوية والأدبية والأخلاقية، أما الناحية الدينية فمن البدهي أنها واجب على الجميع، ولقد ساعدني على تذوق القرآن أن جدي كان مقرّناً للقرآن في القرية وكان صاحب صوت جميل».

«٢»

في عام ١٩٥٢ ترك رجاء أسرته الريفية البسيطة، وأشقاءه السبعة، الذين حاربت الأسرة من أجل تعليمهم جميعاً، في قرية «منية سمنود» بمحافظة الدقهلية، واتجه إلى القاهرة في الوقت الذي لم يكن أحد من أبناء طبقتهم يجرؤ على دخول محلات «شمالاً»، و«شيكوريل»، و«جروبي»، فهذه الأماكن كان مقصورة

على الباشوات والبهوات، وكان لا يحق لصغار الموظفين سوى التسكع في شوارع وسط البلد، والنظر إلى الفاترينات وواجهات المحلات دون أن يضع أحد منهم قدمه داخلها، وكان المصريون غرباء يعيشون على هامش الحياة -على حد وصف الدكتور يونان لبيب رزق.

لكن قامت الثورة، والتحق رجاء بجامعة القاهرة ودرس في كلية الآداب وتخرج في قسم اللغة العربية عام ١٩٦٥، ثم ذهب للعمل محرراً في مجلة «روزاليوسف» لمدة عامين، ثم انتقل للعمل محرراً أدبياً في مؤسسة «أخبار اليوم»، ولمع النقاش وبدا علماً ونجماً وسط كوكبة من كبار مثقفي مصر على مدار تاريخها، فجلس مع العقاد وطه حسين، وصادق نجيب محفوظ ويوسف إدريس، واكتشف محمود درويش والطيب صالح، وغيرهم، والتقى جمال عبد الناصر حين دعاه عام ١٩٦٣ ضمن أعضاء المؤتمر الأول لكتاب آسيا وإفريقيا فدخل قصر عابدين للمرة الأولى لينبهر بناصر وبعايدين ويصف المشهد قائلاً: «وقفنا في صفوف متراصة ومرّ علينا عبد الناصر وصافحنا واحداً واحداً فرأيناه عن قرب، وأدركنا صحة ما كان يقال عنه من أن له هيبة وسحراً وجاذبية وعينين مليئتين بريق استثنائي يأسر القلوب.. كان هذا كله صحيحاً، فقد مسّتنا كهرباء عبد الناصر فاهتزت منا الأعصاب والمشاعر، وأدركنا جميعاً أننا في حضرة رجل عظيم».

ويستمر النقاش في وصف أجواء اللقاء قائلاً: «وبعد أن انتهت المصافحات انتقلنا إلى قاعة العشاء التي تبهر العيون وتخطف الأبصار من فرط جمالها وبهائها، وكان سقفها كله مطلياً بالذهب، وكلما نظرنا إلى هذا الجمال وهذا الجلال

شعرنا كأننا نعيش ليلة من ليالي ألف ليلة، مع فارق واحد هو أننا لم نكن أمراء ولا أصحاب مال أو سلطان، بل كنا في معظمنا فقراء أبناء فقراء، ومَن كان منا أفضل من ذلك فهو في أحسن الفروض من متوسطي الحال، وكنا ندرك جميعاً أنه لولا عبد الناصر الذي فتح لنا الأبواب وقال لنا ادخلوا، ما كان لنا أبداً أن ندخل هذه القاعة الذهبية في قصر عابدين، ونحن آمنون بأن الشرطة لن تقبض علينا وتسيء بنا الظنون، فقد كان قصارى ما نحلم به هو أن نرى الأسوار الخارجية لقصر عابدين ثم نعود إلى بيوتنا سالمين غانمين».

«٣»

وقبل ثلاثين عاماً من لقاء النقاش وعبد الناصر، وتحديدًا في ثلاثينيات القرن الماضي كان الدكتور إسماعيل أحمد أدهم قد أصدر كتاباً عنوانه «لماذا أنا ملحد؟» وقد تم طبع الكتاب وتوزيعه، ولم يتعرض للمصادرة، وكل ما حدث هو أن بعض المثقفين في ذلك العصر أصدروا ردّاً على هذا الكتاب، ومنهم الدكتور أحمد زكي أبو شادي الذي أصدر كتاباً بعنوان «لماذا أنا مسلم؟» وفيه رد علمي قوي ومقنع على دعوى الإلحاد التي نادى بها الدكتور أدهم في كتابه الغريب.

والمدهش أنه لم يترتب على كتاب «لماذا أنا ملحد؟» أي فتنة فكرية أو دينية، ولم يتعرض صاحب الكتاب للاعتقال أو المحاكمة، ولم يحاول أحد أن يقتله رغم إعلانه الصريح للإلحاد، وفي ذلك أن أصحاب الإيمان في ذلك العصر كانوا على ثقة بأنفسهم وبما تنطوي عليه نفوسهم من الإيمان القوي العميق،

وقد وجدوا أنهم قادرون على التصدي لدعوى الإلحاد بالحجة والبرهان والمنطق، وبهذه الطريقة انتصروا في معركتهم للدفاع عن الإيمان.

رجاء النقاش هو من روى هذه الواقعة، وجعل من هذه الواقعة درسًا يجب أن يتعلمه كل جيل يظن في نفسه أنه قد بلغ حد الكمال، وكشف ما جرى لصاحب الكتاب الذي ساءت أحواله، واضطربت أعصابه، وامتلاً عقله بالتشويش والارتباك، ولم يكن قد تجاوز التاسعة والعشرين من عمره؛ فقد وُلد في نفس العام الذي وُلد فيه نجيب محفوظ في الإسكندرية، لكنه لم يعد أمامه أي ضوء ينير طريق العمر، ولم يعد يتحمل، فقرر الانتحار، وألقى بنفسه في البحر!

وخرجت الصحف في اليوم التالي تقول: انتحار صاحب كتاب «لماذا أنا مُلحد؟».